

ودعت مصر، قبل بضعة أيام، ابنا من أعز أبنائها، وعلما كبيرا من أبرز أعلامها، إنه الدكتور رءوف عباس حامد، المؤرخ الكبير والمفكر الفذ والرائد العملاق الذى خلّف لنا تركة علمية ثمينة، تشكل دون مبالغة أهم ما أنتجته قريحة المؤرخين فى مصر والعالم العربي: فلهذا المؤرخ من الإنتاج الأكاديمي أكثر من خمسين عملا تشكل فى مجملها مشروعا علميا كبيرا قائما بذاته، حاول من خلاله النهوض بالكتابة التاريخية فى مجال تخصصه (وهو التاريخ الحديث والمعاصر). فاستطاع عبر مؤلفاته وسلسلة مقالاته وأبحاثه العلمية الرصينة التى ازدانت بها المكتبة العربية أن ينقل مجال الكتابة من التاريخ السياسى وتاريخ المؤسسات إلى ميدان التاريخ الاجتماعى الرحب الذى كان له فيه فضل الريادة العلمية الأكاديمية، بل ويشهد له بأنه حين تناول التاريخ السياسى لـ «مصر» الحديثة والمعاصرة تناوله بروية اجتماعية، أضفت طابعا خاصا على شكل الكتابة التى تغيرت ملامحها بعدما أصبح النمط التحليلي هو السمة الأساسية الغالبة على المعالجة التاريخية. وتتم اختياراته للكتب الأجنبية التى عنى بترجمتها (والتي تربو على خمسة عشر كتابا) عن وعى متقد يهدف إلى إثراء مجال الدراسات فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى بأحدث الأطروحات التى تناولت تاريخ مصر والشرق الأوسط الحديث والمعاصر، وهو إلى جانب ذلك حرص على تكوين مدرسة من تلاميذه فى الاتجاه نفسه؛ فتم إنجاز مجموعة كبيرة من رسائل الماجستير والدكتوراة فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى، وهذا يبين إلى أى حد كان هذا المفكر صاحب مشروع علمي كبير، ومن ثم لم تمض حياته العلمية بطريقة عفوية، وإنما كانت تسير وفق مسار حدده لنفسه، وجاهد فى تطويع الظروف من حوله لتحقيق ذلك المشروع.

وليس بخاف على أحد فى الساحة الأكاديمية والثقافية المصرية والعربية (بل وفى بعض الدوائر العلمية الغربية) حجم الإنجازات العلمية التى قدمها د. رءوف عباس عبر رحلة عمره فى العمل الأكاديمي والتى أربت على أربعة عقود من الزمان. إن نظرة واحدة على قائمة إنتاجه العلمى مقارنة بالفترة الزمنية التى انشغل فيها بالكتابة والتأليف يبين بوضوح أن هذا الرجل كان فى حالة سباق مع الزمن، بالرغم من أنه، إلى جانب ذلك، كان منشغلا بالهم العام وبمواجهة الفساد فى المؤسسات العلمية والجامعية وعلى مستوى الوطن.

ولا بد أن نعترف بأن لهذا المفكر الكبير مناقب عدة يصعب حصرها أو الإلمام بجوانبها، وكل ما يمكن عمله هو أن نحاول الاقتراب من شخصيته؛ لكشف بعض سماته وخصاله التى جعلته حقيقا بأن يكون مثالا للأجيال التى عاصرتة أو تتلمذت على يديه وقدمه يستهدى بها. وبوصفى واحدا من المحظوظين الذين تربوا على يديه (علميا وأخلاقيا) أحاول تقديم إضاءة سريعة حول أستاذية هذا الرجل العالم النبيل.

لقد أعطى د. رءوف عباس مثالا قويا لمعنى «الأستاذ الجامعي» الحقيقي: فالأستاذية عنده تعنى «العطاء» بشقيه العلمى والمادى. فقد كان - رحمه الله - يتفانى فى العطاء بلا حدود، وهو منطقته وسلوكه وفعله الدائم مع الجميع، سواء كانوا من تلامذته أو ممن اقتربوا منه أو طرقتوا بابه. علمنا أن الأستاذ الجامعي الحقيقى هو من يأخذ بأيدي تلاميذه، ويذلل لهم الصعاب، ويضعهم على الطريق، ويظل يدعمهم بعلمه وكرمه، وينابعهم عن كذب، ولا يتخلى عنهم إذا احتاجوه لحظة، يسخر من أجلهم جُل وقته، ويمدهم بكل ما وسعته يده من عون معرفى ومادى. ولعل ذلك يوضح لماذا كان شباب الباحثين ملتفتين من حوله، إذ وجدوا فيه النموذج الحقيقى للعالم الذى يولى اهتماما بالشباب ويؤثرهم على نفسه، ويفتح لهم الطريق للبروز تحت رعايته العلمية الأصيلة.

وفضلا عن الجانب العلمى فى أستاذية رءوف عباس هناك الجانب الأخلاقى، والجانبان مرتبطان ببعضهما ببعض أشد ما يكون الارتباط؛ فالعلم عنده لا يفصل عما هو أخلاقى، بل إنه لطالما كان يؤكد لنا: «أن الأخلاق لا بد أن تسبق العلم، وأن العالم الذى تتعدم فيه المروءة والأخلاق لا يمكن أن يفيد الآخرين بعلمه لأنه سيتعامل عندئذ مع

الجميع من ثقب مصالحه الخاصة». وفي اعتقادي أن هذا المبدأ العام الذي ظل متمسكا به طيلة حياته دون أن يجد عنه قيد أنملة هو ما جعل الجميع سواءً من نظرائه ومجايليه أو من الشباب المحدثين، يجدون فيه النموذج والقوة للمفكر الذي يتمسك بمبادئه، ولا يتراجع عنها حتى في أحلك الظروف والأوقات، ولا يسأل نفسه أين هو ممن حوله، لأنه كان شديد الثقة بنفسه، والاعتداد بشخصه، رغم تواضعه الجم، ولم ينحرف يوماً عن مساره، رغم تحول الكثيرين من حوله تحت إغراءات المصالح الشخصية، والسر في ذلك أنه كان قانعاً بما بين يديه، غير متطلع إلى ما في أيدي الآخرين، وغير منشغل بهم. إن مثل هذه الخصال الحميدة التي جسدها لنا في شخصه وسلوكياته يتكامل معها حرصه على الصالح العام، وانشغاله بهموم كل من حوله، يلعب دور الأب الحنون إلى جانب المعلم الفاضل، فينشغل أيما انشغال بحل المشكلات وإزالة العقبات التي تعترض طريقنا. لقد كانت أستاذيته لنا مثلاً عملياً أعتقد أنه سيظل في ذاكرتنا وذاكرة الأجيال القادمة التي ستسمع أو تقرأ عن فضائله وعلمه.

<http://www.al-araby.com/docs/article2142178027.html>